مواضيع الرسوم والمنحوتات

من تتبع مخلفات الإنسان القديم الفنية في الرسم والنحت ودراستها نستطيع القول بأنه قد مر بخطوات متدرجة في التطور والنضوج من ناحيتي الأسلوب والموضوع ويتفق ذلك مع تطوره العقلي والحضاري من جهة ومع تزايد خبراته وتجاربه في الفن وممارسته من جهة أخرى، كما نستنتج من الموضوعات التي تناولها والمواد التي استخدمها في رسومه ومنحوتاته أنه كان متفاعلاً تفاعلاً قوياً مع بيئته ومحيطه.

1-مواضيع الرسوم:

تشير أقدم الرسوم التي خلفها إنسان الكهوف إلى أنها كانت في البداية بسيطة، لم تتعد عدداً من الخطوط المنحنية، كانت ترتب بأوضاع عشوائية مشوشة لتؤلف أشكالاً يصعب التكهن بطبيعتها، ولعل فنان الكهوف كان قد خط على الأرض بقطعة من أغصان الأشجار أو بأداة من أدواته الحجرية المستعملة في حياته اليومية خطوطاً عفوية، رسمت في بصيرته أشكالاً معينة دفعته إلى إعادة تخطيطها مرات عديدة، ومن ثم تحولت من التخطيط على الأرض إلى التخطيط على جدران الكهوف.

ومن أقدم المواضيع التي نفذها رسام الكهوف أيضاً كانت أشكال الكف البشرية. ويبدو أن الإنسان قد شاهد طبعة كفه الملوثة بدماء الحيوانات التي اصطادها على أرضية الكهف أو جدرانه مما جلب انتباهه إلى مزاولة نفس العملية وتكرارها، وبالتالي قام بغمس يده بدم الحيوان ثم بصمها على الجدار. هكذا كانت البدايات لظهور فن الرسم، بسيطة تقوم على التجربة والمحاكاة، وكان للصدفة وتكرار العمليات وتقليدها دور كبير في تطورها.

وتعد الأشكال الحيوانية أبرز موضوع تناوله رسام الكهوف في رسومه وبخاصة تلك الحيوانات التي عاصرته وعاش بقربها والتي كانت تمثل أهم كائن في حياته شغل حيزاً كبيراً من تفكيره وخياله، فبعض تلك الحيوانات كان جميلاً في نظره. كما كان بعضها الآخر مخيفاً يهدده بالفناء سواء كان ذلك عن طريق مداهمة الإنسان وقتله أم في عدم تمكن الإنسان نفسه من صيد تلك الحيوانات التي كانت المصدر الرئيسي في قوته. فهي بذلك من أهم عوامل بقائه واستمراره

في الوجود والتطور، لذلك فإن تفكير الإنسان خلال هذه الفترة من حياته كان محصوراً كما يبدو بتلك المخلوقات الحية الجميلة، المفزعة والمفيدة معاً.

أما أشهر تلك الحيوانات فهي الغزال بأنواعه والثور الوحشي (البيزون) والفيلة ذاك الصوف (الماموث) وكذلك الدببة والذئاب والثعالب والأرانب والكركدن والخيول والأبقار إضافة إلى قليل من الضباع والأسماك والطيور.

أما أوضاع الحيوانات وحركتها فقط تنوعت بحسب الحالات النفسية والأوضاع الطبيعية للحيوان. فأحياناً نجد في رسم واحد مجموعة من الحيوانات من فصائل مختلفة وبوضعيات متنوعة بينما نجده يرسم في رسم آخر حيواناً واحداً بوضعية خاصة. وعلى أية حال فإن الفنان الأقدم كان ناجحا ومجيداً في نقل صورة صادقة للحيوانات التي عاشت بقربه. فهو ينقل لنا وبشكل معبر حقيقي يعتمد على الصورة التي تنقلها العين المجردة لأشكال الحيوانات بحركات وأوضاع وفعاليات متنوعة، تارة في حالة الركض هرباً من خطر الإنسان وكانت تظهر وقد نفذت في أجسامها خراب الصيد وتارة أخرى في وضع الإضطجاع الهادئ، أو الوقوف الحذر. وكان اعتماد الفنان في إبراز الحالات النفسية للحيوانات على أعضاء الرأس والأطراف وتحريكها وفق الحالة التي يريدها، كالهيجان والتأهب للهجوم أو الفزع أو الهروب أو في حالات الهدوء واقفة أو مضطجعة إلى غير ذلك من الحالات.

لقد كان توزيع أشكال الحيوانات على جدران الكهوف وسقوفها مبعثراً دون تنظيم. فلم تكن هناك معرفة بالتأليف أو الإنشاء التصويري المتجانس في تصوير الموضوع وفي استغلال الأرضيات، فكانت كل شكل من أشكال الحيوانات كتلة مستقلة بحد ذاتها ليست لها أي علاقة بالموضوع مع الكتل الأخرى المجاورة لها على نفس الجدار، فعندما يرسم شكل حيوان بفعالية ما يرسم حيواناً آخر قريباً منه وبفعالية أخرى دون أن تكون بين الوضعيتين أية علاقة بشأن الموضوع. ولعل أجمل رسوم الحيوانات كانت في كهوف فرنسا في منطقة الدوردون في كهوف لاسو وفي كهوف التاميرا بإسبانيا.

والموضوع الآخر الذي تناوله الإنسان القديم والذي يلي موضوع الرسوم الحيوانية في الأهمية هو الأشكال البشرية التي وجدت أفضل نماذجها في كهوف فرنسا وإسبانيا. إن معظم الأشكال البشرية المرسومة كانت تمثل الرجال والقليل منها ما يمثل النساء والأطفال. ولعل أهم ما

يميزها أنها رسمت بحجم أصغر بكثير من الحجم الطبيعي للإنسان. وقد نفذت بأسلوب بعيد عن الواقعية باستخدام عدد من الخطوط البسيطة، فيكون الرأس صغيراً ذا بروز أمامي أشبه برأس الطير، والجذع رسم بشكل مثلث رأسه إلى الأسفل. بينما حددت الأيدي والأرجل بخطوط بسيطة، ولعل السبب في ذلك يكمن في اختلاف الدوافع التي كانت وراء رسم كل من الأشكال الحيوانية والبشرية فالأشكال البشرية رسمت لتؤدي عملية صيد الحيوانات الذي يعتبر الهدف الأساس لمثل هذه الرسوم، ومع ذلك تبدو أشكال البشر في بعض الأحيان بوضع حركي جيد خصوصاً عندما يرسم الإنسان مطارداً لعدد من الحيوانات، تلك الفعالية الشاقة التي كان يؤديها ربما عدة مرات في اليوم الواحد. ففي مثل هذه الرسوم يمثل الإنسان بمفرده أو بهيئة مجاميع يحمل سلاحه (القوس – السهم) ويحاول اللحاق بكل ما أوتي من قوة بعدد من الحيوانات. وهنا تتجسد حركات الإنسان بشكل قريب من لاواقع لا يخلو من رشاقة الحركة وقوة التعبير.

2-مواضيع المنحوتات:

تتنوع أعمال النحت التي خلفها لنا رسام الكهوف بين منحوتات بارزة وأخرى مجسمة، ويبدو من استعراضنا لمواضيع هذه المنحوتات أن أغلي مواضيعها كانت قد ظهرت في الرسوم الملونة. إذ تتناول كذلك أشكالاً بشرية وحيوانية. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى تشابه الدوافع من وراء العمل الفني، والاختلاف يكمن في طبيعة أسلوب التنفيذ.

ومن تتبع أقدم مخلفات الإنسان القديم الفنية في النحت البارز نرى أنه قد سار على خط واحد مع فن الرسم في أول ظهورهما، فقد كانا فنين مندمجين أو متكاملين مع بعضهما ثم افترقا، والدليل على ذلك أن أقدم المنحوتات البارزة كانت قد تمت بطريقة نحت (حفر) الخطوط الخارجية الرئيسية للأشكال ثم إتمام العمل بطريقة الرسم وذلك باستخدام اللون كما توضح ذلك أمثلة كثيرة في الكهوف الفرنسة، بعدها اتجه فنان النحت البارز إلى التخلص من هذه الازدواجية وأخذ كل من النحت البارز والرسم ينعزل عن الآخر. لقد سار النحت متطوراً من طريقة الحفر أو الحفر إلى النحت البارز العالي ثم ظهرت المنحوتات المجسمة في أواخر العصر الحجري القديم.

نفذ فنان النحت البارز مواضيعه على مواد مختلفة، كجدران الكهوف والملاجئ الصخرية وعظام الحيوانات وقرونها وأنيابها كما سبق أن ذكرنا. ومن أشهر نماذج النحت البارز التي نفذت

على جدران الكهوف الحجرية كان من كهف ايبو في منطقة الرون في فرنسا حيث نجد أن إفريزاً من النحت البارز يبلغ طوله (71) ياردة، وعرضه (16) ياردة. مثلت فيه مجموعة من حيوانات البيزون والخيول والماعز.

أما أجمل نماذج النحت البارز التي نفذت على العظام فقد ظهرت في الكهوف الفرنسة، ومنها مثلاً نحت على ناب ماموث، يمثل ماموث بحالة تهيج وفزع على عظم نسر نفذ النحات موضوعاً يتكون من مشهد لقطيع من غزال الرنة، وعلى ضلع حصان نحت الفنان موضوعاً يمثل مشهد عراك بين حيواني بيزون، وإضافة إلى الأشكال الحيوانية، كان فنان النحت البارز بارعاً من تمثيل الأشكال البشرية، ولعل أجمل نماذج النحت البارز من هذا النوع المذكور قد جاءتنا من كهف لامجدولين في فرنسا. فعلى جدران الكهف المذكور نحت شكل امرأة عارية في وضعية الاضطجاع، ومع أن الشكل قد نفذ بأسلوب بسيط يعتمد على تحديد الحدود الخارجية وحفرها فقط، إلا أن فيه جمالية بديعة تشبه تلك المرونة والدقة في التخطيط والنقل الواقعي الصادق. وقوة التعبير التي نشاهدها في رسوم الكهوف.